لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ⁽¹⁾ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

---

(1) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٦/٨] . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٧) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٣) ﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُباح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدَل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥) ﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى فى الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن علْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٥٤٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا ـ إذن ـ جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوَّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية »[1] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ فى الجيش فاشية ، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هى ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال[2] ـ يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أى : إن كان الأمر كما تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شىء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شانك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا ـ أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٩/٤) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمى فى الكون مبنىٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشيء على شيء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربي حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما علْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③﴾ [الحج] فى النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم فى الوجود ، وفى الوحدانية ، وفى البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فِعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③﴾ [الحج] أى : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ؛ إما من النفس التى لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذى يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك فى شراكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس بالشر ، فمَنِ الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، أمَّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك فى هذا الشىء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تابيْتَ عليه ولم تُطعْهُ فى معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر فى نفسك ، فإنْ كان الذى يأخذ منك الصدقة أحبَّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذى يعطيك يعمر لك الدنيا التى تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذى يأخذ منك يعمر لك الآخرة التى تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝٢٠ ﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التى تحدثنا عنها : فالعلم يُراد به البدهيات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتى هى أحسن .

ومعنى : ﴿ مَّرِيدٍ ۝٣ ﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حكماً ظاهراً ، هكذا (عينى عينك) كما يقال ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الحج] أى : تابعه وسار خلفه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج] يضله ويهديه ضدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهى هداية ، وإن دللتَ على شر فهى أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(1) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات]

أى : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء]

والسَّعير : هى النار المتوهّجة التى لا تخمد ولا تنطفىء .

---

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . قال عمر : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٣/ ٤] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ(١) وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ(٢) لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥ ﴾

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ .. ٥ ﴾ [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكِّين في مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ .. ٥ ﴾ [الحج] أي : الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلقوا من (نطفة) حية من إنسان حي .

---

(١) **النطفة** : الماء الصافي ، وتطلق في القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذي يُخلَق منه الولد . **العلقة** : الدم الجامد الغليظ الذي يَعْلَق بما يمسُّه . **والمضغة** : القطعة من اللحم تُمضَغ لتماسكها . **ومخلقة** : أي مضغة مشكلة ومصورة على هيئة طفل . **وغير مخلقة** : أي غير مشكَّلة ، أي غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

(٢) هو : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبي ٦/٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة فى خَلْق الإنسان : ﴿مِّن تُرَابٍ ..﴿٥﴾﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِن مَّاءٍ ..﴿٦﴾﴾ [الطارق] ، و ﴿مِّن طِينٍ ..﴿٢﴾﴾ [الأنعام] ، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر] ، و ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن] وهذه التى دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أىِّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشىء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشىء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه فى بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق الله الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشىء الواحد ، ومرور الشىء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ..﴿٥﴾﴾ [الحج] والنطفة فى الأصل هى قطرة الماء العَذْب ، كما جاء فى قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودعَ الغيمُ صفْوَهَا ... مُثقَّلَةُ الارجاء زُرْقُ الجَوَانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شىء ، وكذلك النطفة هى خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٣٣١] .

الاحـتراق ، وعـملية الأيض أى : الهـدم والبناء بصفة مـستـمرة ينتج عنهـا خروج الفـضلات الـمخـتلفة من الجسم : فـالبول ، والغـائط ، والعرق ، والدمـوع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فـضلات ناتجة عن احـتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الـدم .

ومن هذه الخـلاصـة يُسـتـخلص مـنىُّ الإنسـان الذى تؤخـذ منه النطفـة ، فهو - إذن - خـلاصة الخـلاصة فى الإنسان ، ومـنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكـان الخالق - عز وجل - قد صَـفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقـاء ؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى ألذُّ متعة فى وجود الإنسان الحىِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فـهى لذَّاتٌ معروفة محددة بحـاسَّة معينة من حـواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصـاحبة لنزول المنىِّ أثناء هذه العـمليـة الجنسيـة فهـى لذة شاملة يهـتز لهـا الجسم كلـه ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فـيهـا منطقة الإحـساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا - عـز وجل - أن نغتسل بعد هذه العـملية ؛ لأنها شـغلتْ كل ذرة مـن ذرات تكوينك ، وربمـا - عند الـعـارفـين بالله - لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كـان الأمر بالاغتسـال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفـيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكان فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصْفى شىء فيك ؛ لأنها الذرة التى شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرَّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته فى قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة فى برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك ؛ يُسمِّى الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أصْل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] أى : مُذكِّر بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذَّرِّ قبل أنْ يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..﴿٥﴾﴾ [الحج] سمِّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة]

فالمنيُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلَقة هنا هى البُويْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكان فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا فى الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝ ﴾ [الحج] هى الصيدلية التى تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] أى : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ۝ ﴾ [الحج] وهى المضْغة التى قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سنَّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففى أىِّ وقت ينتهى الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ۝٥﴾ [الحج] قال : ﴿نُخْرِجُكُمْ .. ۝٥﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿طِفْلاً .. ۝٥﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : فى اللغة ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال فى موضع آخر فى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] .. ۝٥٩﴾ [النور]

وكما تقول : هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ۝٧٧﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿هَـٰؤُلاءِ ضَيْفِي .. ۝٦٨﴾ [الحجر] ولم يقل : ضيوفى ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّى معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ۝٥﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتى مرحلة الأشد : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ۝١٥﴾ [الأحقاف] يعنى : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلُماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٥) ﴾ [الحج] وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك فى طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]

أى : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. (٥) ﴾ [الحج]

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ..(٥)﴾ [الحج] أى : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿وَرَبَتْ .. (٥)﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى

تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما فى تغذية النبتة تحوَّلتا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين فى تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ فى تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذى خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية فى الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَتْ .. ۝ ﴾ [الحج] أى : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث فى العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾[الحج]

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى ، كما كنا نرى فى عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعى فيخضر الوادى ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها فى أوروبا .

والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض ؛ لأنه يسْقِى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التى تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصبْها العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هى التى تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذى يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوَث الحيوانات .

ومعنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مثْله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعنى فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توام يعنى مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ .. ۝٥﴾ [الحج] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ۝٤٩﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى نظنه جماداً لا حركة فيه ، يتكوَّن من زوجين : سالب وموجب فى الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فقوله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] رصيد عال لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففى الماضى عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفى الماضى القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شىء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح فى لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون فى الذكر وحده ، أو فى الأنثى وحدها كما فى النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً فى النبات الواحد كما فى سنبلة القمح أو فى كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له فى أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفى منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التى لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشىء حسن المنظر والجميل الذى يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى